مقاييس نقد متون روايات المغازي والسير عند الإمام ابن القيم

دراسة تطبيقية على كتابه (زاد المعاد في هدي خير العباد)

Criteria for the criticism of the texts of the narrations of Maghazi and Prophet's biographies of Imam Ibn al-Qayyim: An Applied Study on his Book (Zad ul Ma'ad fi Huday Khair Au Abbad)

دكتور عبد القادر عبد الكريم جوندل *

ABSTRACT

The scholars were concerned with the biography of the Prophet, ﷺ, in their awareness of the importance of the biography, and among the scholars who dealt with the fragrant biography of Imam Ibn al-Qayyim in his book, where he created a new approach in dealing with the events of the Prophet's biography and presented in his book valuable scientific material. A combination of presenting and criticizing the narrations of Maghazi and biographies on the one hand and eliciting benefits from them on the other.

And since the books of Maghazi and Al-Seerah collected the authentic and the week, and indeed the very weak from the traces and the news, Ibn Al-Qayyim would warn about what is acceptable from them, so he takes it and cites it, and what is rejected, showing his weakness and its reason. Thus, he judged the hadiths, and made clear the illusions and errors in them. This study aims to highlight his critical approach in dealing with these narratives, acceptance, and response.

There are several standards used by Imam ibn Al-Qayyim to ensure the integrity of the text, and the following is a statement of the standards of Imam ibn Al-Qayyim in criticizing the texts of Al-Maghazi and Al- Seerah.

1- Presenting narrations to the Qur'an

2- Presenting narrations on the prevent History

3- Presenting narrations on the reason

4- Presenting the narrations according to the prevailing custom at the time of the incident.

Key wards: *Prophet's biography, events of the Prophet's biography, criticizing the narrations of Maghazi*.

* أستاذ مساعد بقسم السيرة والتاريخ الإسلامي، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أما بعد:

فقد عُنِي العلماء قديما بسيرة النبي ﷺ إدراكاً منهم لأهمية السيرة التي يمكن من خلالها فهم القرآن الكريم، ومقاصد الدين الكلية، والتعرف على منهج القدوة... ومن العلماء الذين تناولوا السيرة العطرة والأيام النضرة بطريقة فيها جدّية في الطرح مع جدّة في العرض الإمام ابن القيم ضمن كتابه (**زاد المعاد في هدي خير العباد**) حيث ابتكر منهجاً جديداً في تناول أحداث السيرة النبوية، وقدّم في كتابه مادة علمية قيّمة جمع بين عرض روايات المغازي والسير ونقدها من جهة، واستنباط الفوائد منها من جهة أخرى.

ولما كانت كتب المغازي والسير تجمع الصحيح والضعيف، بل الضعيف جدا من الآثار والأخبار، كان ابن القيم ينبّه على ما هو مقبول منها، فيأخذه ويستشهد به، وما هو مردود فيبين ضعفه وعلّته. وهكذا كان يحكم على الأحاديث، ويبين ما فيها من أوهام وأخطاء. وهذه الدراسة تهدف إلى إبراز منهجه النقدي في التعامل مع هذه الروايات قبولا ورداً.

والجدير بالذكر أن الإمام ابن القيم لم يقتصر في هذا العمل بنقد بعض روايات المغازي والسير بالنظر إلى الأسانيد فقط، بل ذهب أحيانا إلى نقدها بالنظر إلى متونها، وهناك عدة مقاييس استخدمها الإمام ابن القيم للتأكد من سلامة المتون، وفيما يلي بيان لمقاييس الإمام ابن القيم في نقد متون مرويات المغازي والسير.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة حسب الآتي:

١- **المقدمة**: بيّنت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره
٢- **المبحث الأول**: عرض الروايات على القرآن
٣- **المبحث الثاني**: عرض الروايات على التاريخ الثابت
٤- **المبحث الثالث**: عرض الروايات على العقل
٥- **المبحث الرابع**: عرض الروايات على العرف السائد زمن الواقعة
٦- **الخاتمة**: وذكرت فيها أهم النتائج

المبحث الأول: عرض الروايات على القرآن

إن القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، وهو الذي تكفّل الله بحفظه. فلذلك كل ما حكاه وتضمنه القرآن حق لا إشكال فيه. وقد جعل ابن القيم القرآن أول المقاييس لنقد متون روايات المغازي والسير. ولكن رأيه في عد القرآن مقياسا لنقد متون الروايات ليس كما قرّره الحنفية ومن وافقهم

لأن ذلك سيؤدي إلى طرح جم غفير من روايات المغازي والسير التي لم يُذكَر موضوعها في القرآن.[١] وذلك لأن الآيات القرآنية محدودة بحيث لم تتضمن كل الأحداث التاريخية التي وقعت في عهد النبي ﷺ. بل المراد بعرض روايات المغازي والسير على القرآن عند ابن القيم هو طلب مصداق الروايات من القرآن. فيرى ابن القيم وجوب رد ما يخالف القرآن مخالفة لا يمكن الجمع بينهما. ومن خلال استقرائي لكتاب زاد المعاد وجدت أن ابن القيم يستخدم هذا المقياس لنقد متون الروايات في حالتين:

المطلب الأول: رد الروايات التي تخالف نصوص القرآن الكريم

رد ابن القيم بعض الروايات في حالة مخالفتها للقرآن بحيث لا يمكن الجمع والتوفيق بينهما. وذلك لأن القرآن منقول إلينا نقلا متواترا فهو أقوى ثبوتا من أخبار المغازي والسير فينبغي تقديمه. ومن الأمثلة على ذلك:

رد ابن القيم الرواية التي فيها لفظ رجب في رواية سرية الخبط وحكم عليها بالوهم.[٢]

وقبل أن أبيّن موقف ابن القيم من هذه الرواية يحسن بي أن أذكر آراء العلماء في حكم القتال في الأشهر الحرم. وقد اختلف العلماء في حكم القتال في الأشهر الحرم على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور العلماء إلى أن النهي عن القتال في الأشهر الحرم منسوخ.[٣] واستدلوا على ذلك بما يلي:

أ. قوله تعالى: (**وقاتِلُوا المُشْرِكِينَ كافَّةً كَما يُقاتِلُونَكم كافَّةً واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ**)[٤]

ب. هذه الآية عامة تشمل القتال في الأشهر الحرم وغيرها ولم تستثن شهرا حراما.[٥]

---

(١) يرى الحنفية وبعض المالكية أن أحاديث الآحاد لا تخصِّص القرآن ولا تقيِّده ولا تزيد عليه. وذلك لأن كل ذلك نوع من المخالفة ويجب تقديم القرآن لأنه قطعي. انظر: السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، الأصول، د.ط، ٢م، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٣٦٤.

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٣٤٤.

(٣) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٤، ص٣١٤؛ والقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٣،١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج٣، ص٤٦.

(٤) التوبة: ٣٦

(٥) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٨.

ت. قوله تعالى: (فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُ)[١]. فأمر الله نبيه ﷺ إذا انقضى الأجل أن يقاتلهم في الحل والحرم وعند البيت حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدا رسول الله.[٢] والمراد من الأشهر الحرم في الآية هي أشهر التسيير الأربعة. وهذه الآية عامة ولم تستثنِ شهرا حراما.[٣]

ج. وتظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف، وأرسل أبا عامر إلى أوطاس لحرب من بها من المشركين في الأشهر الحرم. وذلك في شوال وبعض ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم.[٤]

القول الثاني: ذهب بعض العلماء كعطاء إلى أن النهي عن القتال في الأشهر الحرم باقٍ ولم يُنسَخ.[٥] واستدلوا على هذا القول بما يلي:

أ. قوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** [٦]). هذه الآية صريحة في النهي عن القتال في الأشهر الحرم. ويحتمل أن يكون الأمر بالقتال في الأشهر الحرم إذا كان الكفار بدؤوا به وقتال الدفاع جائز اتفاقا.[٧]

ب. قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ)** [٨]. وهذه الآية من سورة المائدة وهي آخر السور نزولا وليس فيها منسوخ.[٩]

---

(١) التوبة: ٥

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان، ج٣، ص٥٦٧.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٣١٤.

(٥) انظر: القرطبي، الجامع الأحكام القرآن، ج٣، ص٤٦.

(٦) البقرة: ٢١٧

(٧) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٣٣.

(٨) المائدة: ٢

(٩) انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٣٠٢.

ج. أما قوله تعالى: **(وقاتِلُوا المُشْرِكِينَ كافَّةً كَما يُقاتِلُونَكم كافَّةً واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ)** فليس صريحا في نسخ النهي عن القتال في الأشهر الحرم. بل هي عامة مخصّصة بآية تحريم القتال فيها.(١)

د. أما الاستدلال بغزوة حنين والطائف وبيعة الرضوان على النسخ ففيه نظر لأن كل هذه الغزوات بدأ بها الكفار. فيكون القتال قتال الدفاع وهو جائز اتفاقا.(٢)

ورجّح ابن القيم الرأي الثاني. ونعود الآن إلى موقف ابن القيم من الرواية التي فيها ذكر أن سرية الخبط وقعت في شهر رجب. وأصل القصة ثابت في الصحيحين(٣) إلا أن الواقدي وابن سعد زادا في روايتهما أن السرية وقعت في شهر رجب وهو الشهر الحرام.(٤) وانتقد ابن القيم هذا اللفظ لكونه يخالف الآية القرآنية التي تنص على أن القتال في الأشهر الحرم منهي عنه فيقول عند استنباط الفوائد من هذه السرية:

> "ففيها جواز القتال في الشهر الحرام إن كان ذكر التاريخ فيها برجب محفوظا **والظاهر – والله أعلم – أنه وهم غير محفوظ**، إذ لم يحفظ عن النبي ﷺ أنه غزا في الشهر الحرام ولا أغار فيه ولا بعث فيه سرية. وقد عير المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي فقالوا : استحل محمد الشهر الحرام. وأنزل الله في ذلك" **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)**.(٥)

المطلب الثاني: رد الروايات التي تخالف سياق القرآن

إن دلالة السياق قضية مهمة لا يستغني عنها من اشتغل بالنصوص الشرعية. وقد عني بعض العلماء بقضية السياق القرآني في مؤلفاتهم كابن دقيق العيد وابن تيمية والزركشي.(٦) وقال ابن تيمية مبينا

---

(١) انظر: ابن العثيمين، محمد بن صالح بن محمد (١٤٢٣هـ)، تفسير الفاتحة والبقرة، ط١، ٣م، السعودية: دار الجوزي، ج٣، ص٥٤.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٣٠١-٣٠٢.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب عزوة سيف البحر وهم يتلقون عيرا لقريش وأميرهم أبو عبيدة بن الجراح τ، ج٤، ص١٥٨٥، رقم الحديث: ٤١٠٣؛ ومسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة ميتات البحر، ج٦، ص٦١، رقم الحديث: ٥١٠٩.

(٤) انظر: الواقدي، المغازي، ج١، ص٦؛ وابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٠٠.

(٥) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٣٤٤.

(٦) انظر: ابن دقيق العيد، أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري (ت٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، إحكام الأحكام، د.ط، ٢م، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٢١؛ وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٦، ص١٨.

أهمية معرفة دلالة السياق: "ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والدلالات فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقا". [١]

وقد تأتي بعض الروايات في السير بخبر لم يخالف نصوص القرآن الكريم صراحة ولكن لاحظ ابن القيم أن مضمونها يخالف سياق بعض الآيات القرآنية فلجأ حينئذ إلى نقدها وردها على أساس أن مضمونها يخالف السياق القرآني. ومن الأمثلة على ذلك[٢] انتقاد ابن القيم الرواية التي ذكرت أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء. وهذا قول ابن القيم في نقد رواية ابن عباس في قضية رؤية النبي ﷺ ربه فقال: "وأما قوله تعالى في سورة النجم: (**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**)[٣]فهو غير الدنو والتدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، **والسياق يدل عليه** فإنه قال: **(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**)[٤]وهو جبريل: (**ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى...فأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتدليه ولا تَعَرُّضَ في سورة النجم لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى وهذا هو جبريل".[٥]

ورواية ابن عباس التي انتقدها ابن القيم قد رواها مسلم إذ قال ابن عباس: **(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** [٦]**(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**) [٧]"رآه بفؤاده مرتين".[٨] ولم يذكر ابن القيم الرواية التي فيها بيان أن التدلي في الآية هو تدلي الرب. ووجدت عند الطبري رواية ابن عباس: **دَنَا(فَتَدَلَّى**) قال: دنا ربه فتدلّى.[٩]

---

(١) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٦، ص١٨.

(٢) انظر مثالا آخر في زاد المعاد، ج٣، ص٦٣.

(٣) النجم: ٦-٨

(٤) النجم: ٥

(٥) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٣٤.

(٦) النجم: ١١

(٧) النجم: ١٣

(٨) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى]، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟، ج١، ص١٥٨، رقم الحديث: ٢٨٥.

(٩) أخرجها الطبري في تفسيره، ج٢٢، ص٥٠٢ من طريق يحيى الأموي، عن أبيه، عن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن ابن عباس رضى الله. وسنده حسن لأن فيه مُحَمَّد بن عمرو بن علقمة وهو صدوق.

ومضمون هذه الرواية يدل على أن الله دنا وتدلى إلى النبي ﷺ ليلة الإسراء. ولعل هذه الرواية التي انتقدها ابن القيم لأنها تخالف سياق الآيات حيث يفهم منه أن المرئي هو جبريل.(١)

والذي ينبغي التنبيه عليه هنا أن هذا المقياس لم يستخدمه ابن القيم لرد روايات المغازي والسير إلا إذا كان التعارض لا يمكن التوفيق والجمع فيه. أما إذا كان الجمع والتوفيق ممكنا لا تكلف فيه فلا يلجأ ابن القيم إلى استخدام هذا المقياس لرد الروايات، بل يقوم بتفنيد رأي من ردّ الروايات بحجة مخالفتها القرآن. والمثال الذي يبيّن ذلك هو:

– ما رواه ابن عساكر في التاريخ الكبير "أن رسول الله ﷺ كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاما قُدِّم له حتى يأكل منه من قَدَّمه".(٢)

انتقد ابن القيم رأي بعض العلماء الذين ردوا هذه الرواية بحجة تعارضها مع قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (٣). وزعم ابن القيم أن هذه الرواية لا تخالف الآية لأن مقتضى العصمة لا ينافي التعاطي بالأسباب. كما أن ضمان الله لهذا الدين بالظهور والنصر لا ينافي مشروعية القتال وإعداد القوة ورباط الخيل.(٤) فيكون امتناع النبي ﷺ عن أكل الطعام إلا بعد أن أكله من قَدَّمه داخلا في باب التعاطي بالأسباب وهو لا ينافي عصمة الله له.

المبحث الثاني: عرض روايات المغازي والسير على التاريخ الثابت عند ابن القيم

بوسعنا أن نقول إن صحة السند وحدها لا توجب الحكم على المتن بالصحة والثبوت. ولا بد على النقاد أن ينظروا إلى المتن لمعرفة سلامة الخبر من الشذوذ والعلة. وعلى هذا، يُعَدّ عرض الروايات على التاريخ الثابت من عملية الحكم على المتن.

من خلال النظر إلى تصرفات ابن القيم في تعامله مع روايات المغازي والسير في كتاب زاد المعاد يمكنني أن أقول إن المقياس الثاني الذي استخدمه ابن القيم لنقد أخبار المغازي والسير هو عرضها على

---

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، التبيان في أقسام القرآن، د.ط، ١م، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص١٥٨.

(٢) ذكره ابن قيم الجوزية في زاد المعاد، ج٣، ص٤٢١.

(٣) المائدة: ٦٧

(٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٤٢١.

التاريخ الثابت. وقد كتب بعض أهل العلم من المعاصرين كتابا يبحث في قضية نقد الحديث بالعرض على الوقائع التاريخية.[١] إلا أن كتابه لم يتركز على الروايات التي انتقدها ابن القيم. وفي هذا المطلب سأتناول منهج ابن القيم في عرض روايات المغازي والسير على التاريخ الثابت.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن التاريخ لا يصلح أن يكون مقياسا لنقد روايات المغازي والسير إلا إذا كان معدودا من الحقائق التاريخية عند العلماء. فيكون التاريخ حينئذ حقيقة قطعية أقوى من أخبار الآحاد الظنية. وإذا تعارض القطعي مع الظني ينبغي تقديم القطعي على الظني. وهناك عدة طرق اتبعها ابن القيم لإثبات الحقائق التاريخية. وفيما يلي بيان الطرق التي أثبت بها ابن القيم الحقائق التاريخية:

المطلب الأول: استدعاء ما أجمع عليه المؤرخون

إن الطريق الأول الذي اتبعه ابن القيم لإثبات الحقائق التاريخية في كتابه زاد المعاد استدعاء ما أجمع عليه المؤرخون. وإذا جاء خبر في المغازي والسير بشيء يخالف ما أجمع عليه المؤرخون حكم عليه ابن القيم بالضعف والشذوذ. ومن الأمثلة الموضّح لذلك[٢]:

أولا: حديث إخبار النبي ﷺ لحذيفة وعمار عن أسماء المنافقين

عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، قال:"ورجع رسول الله ﷺ قافلا من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناس من أصحابه فتآمروا عليه أن يطرحوه في عقبة في الطريق..... فقال: ﷺ هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ ، قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها....فسماهم لهما وقال: اكتماهم".[٣]

لاحظ ابن القيم وقوع الوهم في هذه الرواية إذ ذكرت أن النبي ﷺ أخبر حذيفة وعمارا عن أسماء المنافقين في غزوة تبوك. فخالفت هذه الرواية الحقيقة التاريخية المعروفة وهي انفراد حذيفة بن اليمان بمعرفة أسماء المنافقين. ولذلك سُمّي حذيفة بصاحب السر الذي لا يعلمه غيره.[٤] ومما يدل على وقوع الوهم في الرواية ما يلي:

---

(١) انظر: العكايلة، سلطان سند، نقد الحديث بالعرض على الوقائع والمعلومات التاريخية، (عمان: دار الفتح، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

(٢) انظر مثالا آخر في زاد المعاد ج٣، ص٥٦١.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل، ج٥، ص٢٥٧. وسنده ضعيف لضعف ابن لهيعة وثبوت وهمه في هذه الرواية.

(٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٤٧٩.

أ. **عن أبي نضرة عن قيس قال: قُلتُ لِعَمَّارٍ: أَرَأَيْتُمْ صَنِيعَكُمْ هذا الذي صَنَعْتُمْ في أَمْرِ عَلِيٍّ، أَرَأْيًا رَأَيْتُمُوهُ، أَوْ شيئًا عَهِدَهُ إلَيْكُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ؟ فَقالَ: ما عَهِدَ إلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ شيئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وَلَكِنْ حُذَيْفَةُ أَخْبَرَنِي عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: في أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا، فيهم ثَمَانِيَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ، ثَمَانِيَةٌ منهمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ**[(١)].[(٢)] وسياق هذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ أعلم حذيفة بأسماء المنافقين فذكر حذيفة لعمار أن عددهم اثنا عشر.

ب. روى ابن إسحاق هذه القصة وذكر أن النبي ﷺ أعلم بأسماء المنافقين حذيفة وحده.[(٣)]

ج. عن إبراهيم النخعي قال: ذهب علقمة إلى الشام، فلما دخل المسجد قال: "اللهم يَسِّر لي جليسا صالحا"، فجلس إلى أبي الدرداء فقال أبو الدرداء: "ممن أنت؟"، قال: "من أهل الكوفة"، قال: **أليس فيكم أو منكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره يعني حذيفة؟**"، قال: قلت: "بلى"، قال: "أليس فيكم أو منكم الذي أجاره الله على لسان نبيه ﷺ يعني من الشيطان يعني عمارا؟"، قلت: "بلى" قال: "أليس فيكم أو منكم صاحب السواك أو السرار؟"، قال: "بلى"...[(٤)] وهذه الرواية أيضا تدل على أن حذيفة انفرد بمعرفة أسماء المنافقين حتى يُسَمَّى بصاحب السر.

ثانيا: ذكر بلال في حادثة بحيرى الراهب

روى عبد الرحمن بن غزوان عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبي موسى قصة النبي ﷺ مع بحيرى الراهب قبل البعثة وفيها لفظ: "فلم يزل يناشده حتى ردّ أبو طالب

---

(١) الدبيلة هي الداهية وأطلقت على قرحة تحدث في بطن الإنسان. وجاء في بعض الروايات أن الدبيلة سراج يخرج في أكتافهم، ولعله أراد به ورما حارا يحدث في أكتافهم بحيث يظهر تلك الحرارة وشدة لهبها ممثلة بسراج من النار. انظر: الملا علي القاري، مرقاة المفاتيح، ج١٧، ص١٨٩.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب ١٣، ج٤، ص٢١٤٣، رقم الحديث: ٢٧٧٩؛ وأحمد، ج٤، ص٣١٩، رقم الحديث: ١٨٩٠٥؛ والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب المرتد، باب ما يحرم به الدم من الإسلام زنديقا كان أو غيره، ج٨، ص١٩٨، رقم الحديث: ١٦٦١٣.

(٣) انظر: البيهقي، دلائل النبوة، ج٥، ص٢٥٧-٢٥٨؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص١٩. وسنده منقطع.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما، ج٣، ص١٣٦٨، رقم الحديث: ٣٥٣٣.

وبعث معه أبو بكر بلالا وزوّده الراهب من الكعك والزيت".[١]

انتقد ابن القيم لفظ بلال في هذه القصة لأن بلالا لم يكن موجودا عند وقوع القصة حتى وإن كان موجودا فإنه لم يكن مع أبي بكر. وهذا مما أجمع عليه أئمة المغازي.[٢] ولم ينفرد ابن القيم بالحكم على القصة بالوهم، بل ذهب عدد من المحدثين إلى نقدها خلافا للحاكم والحلبي.[٣]

ثالثا: حديث زواج النبي ﷺ بأم حبيبة

روى عكرمة عن أبي زميل، عن ابن عباس قال: "كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه فقال للنبي ﷺ: "يا نبي الله، ثلاث أعطنيهن"، قال: «نعم»، قال: "عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها"، قال: «نعم»، قال: "ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك"، قال: «نعم»، قال: "وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين"، قال: «نعم»". قال أبو زميل: "ولولا أنه طلب ذلك من النبي ﷺ ما أعطاه ذلك لأنه لم يكن يسئل شيئا إلا قال: نعم".[٤]

وانتقد ابن القيم هذا الحديث لأنه يخالف ما أجمع عليه العلماء من أن النبي ﷺ تزوج أم حبيبة قبل فتح مكة وهو قبل إسلام أبي سفيان بزمان.[٥] وعقّب البيهقي على الحديث قائلا:

> "وهذا الحديث في قصة أم حبيبة ﵂ قد أجمع أهل المغازي على خلافه، فإنهم لم يختلفوا في أن تزويج أم حبيبة ﵂ كان قبل رجوع جعفر بن أبي طالب وأصحابه من

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، ج٥، ص٥٩٠، رقم الحديث: ٣٦٠؛ والأصبهاني في الدلائل، ص٤٥، رقم الحديث: ١١؛ والبيهقي في الدلائل، ج٢، ص٢٥. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص٧٥.

(٣) انظر: الحاكم، المستدرك، ج٢، ص٦٧٢، رقم الحديث: ٤٢٢٩. ومال البرهان الحلبي أيضا إلى تصحيح الحديث حيث قال إن وجود بلال في القصة غير مستحيل. وربما سافر مع هذا العير بأمر سيده أمية بن خلف. انظر: البرهان الحلبي، السيرة الحلبية، ج١، ص١٧٦.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﵃، باب من فضائل أبي سفيان بن حرب ﵁، ج٤، ص١٩٤٥، رقم الحديث: ٢٥٠١.

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص١٠٢. وانظر أيضا: البيهقي، السنن الكبرى، ج٧، ص١٤٠، رقم الحديث: ١٣٥٧٨؛ وابن الجوزي، كشف المشكل، ج٢، ص٤٦٣.

أرض الحبشة، وإنما رجعوا زمن خيبر فتزويج أم حبيبة كان قبله وإسلام أبي سفيان بن حرب كان زمن الفتح...".[١]

المطلب الثاني: الاستدلال بسكوت أئمة المغازي والسير

وهذا أيضا يُعَدّ من الطرق التي استخدمها ابن القيم لإثبات التاريخ الثابت. وعلى هذا الأساس لم يقبل ابن القيم خبرا إذا جاء بشيء لم ينقله أحد من أئمة المغازي والسير المتقدمون. فيكون سكوت المؤرخين عن نقل حادثة معينة تتوفر الدواعي على نقلها قرينة قوية تدل على أنها لم تثبت تاريخيا. والأمثلة الآتية توضّح ذلك:

أولا: حديث سؤال أبي سفيان من النبي ﷺ تأميره في الغزو

تقدم بيان أن ابن القيم انتقد حديث أبي سفيان الذي رواه مسلم في زواج النبي ﷺ بأم حبيبة. وهناك وهم آخر للحديث الذي تفطن له ابن القيم وهو سؤال أبي سفيان من النبي ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار فأجازه النبي ﷺ. فقال ابن القيم ناقدا هذا الحديث: "وأيضا ففي هذا الحديث أنه قال له: "وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين"، قال: «نعم». ولا يعرف أن النبي ﷺ أمر أبا سفيان البتة".[٢]

فجعل ابن القيم عدم نقل أئمة المغازي والسير قصة تأمير أبي سفيان في غزو الكفار قرينة تدل على وقوع الوهم في الحديث.

ثانياً: ذكر سعد بن أبي سرح في غزوة تبوك

ذكر ابن إسحاق أن سعد بن أبي سرح من المنافقين الذين شاركوا في غزوة تبوك.[٣] وانتقد ابن القيم ما ذكره ابن إسحاق لكون سعد بن أبي سرح لم يُعْرَف إسلامُه البتة. فكون سكوت أئمة المغازي والسير عن نقل إسلامه قرينة تدل على أنه لم يكن من المنافقين.[٤]

المطلب الثالث: النظر إلى استمرارية العمل بمقتضى الخبر زمن الخلفاء الراشدين

والطريق الأخير الذي استخدمه ابن القيم لإثبات الحوادث التاريخية هو النظر إلى استمرارية العمل بمقتضى الخبر زمن الخلفاء الراشدين. وذلك لأن زمن النبي ﷺ زمن التشريع وإذا كان الخبر ثابتا

(١) البيهقي، السنن الكبرى، ج٧، ص١٤٠، رقم الحديث: ١٣٥٧٨.

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص١٠٧.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل، ج٥، ص٢٥٨.

(٤) انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٤٨٠.

تاريخيا لكان العمل بمقتضاه مستمرا حتى في زمن الخلفاء الراشدين بشرط ألا يكون العمل به منسوخا أو خاصا به ﷺ. ولكن هذا الطريق مخصوص بالخبر المتعلق بالأحكام الشرعية. وقد أشار ابن القيم إلى هذا المقياس فقال: "الأحاديث إذا اختلفت عن النبي ﷺ، فإنه ينظر إلى ما عمل به أصحابه من بعده، وقد تقدم ذكر عمل الخلفاء الراشدين، وأهليهم، وغيرهم من الصحابة بالمزارعة".(١) والمثال على ذلك رد ابن القيم رأي من أثبت أن النبي ﷺ صلى على بعض الشهداء فقال:

> "أن شهيد المعركة لا يُصَلّى عليه لأن رسول الله ﷺ لم يصلِّ على شهداء أُحُد، ولم يُعْرَف عنه أنه صلى على أحد ممن استشهد معه في مغازيه، وكذلك خلفاؤه الراشدون، ونوابهم من بعدهم".(٢)

وواضح من خلال النظر في هذا القول أن ابن القيم جعل عمل الخلفاء الراشدين مقياسا لنقد بعض الأخبار التاريخية. والذي يبدو لي أن ابن القيم قد غيّر رأيه لأنه كان يرى أن الخليفة مخيَّر بين الصلاة على الشهداء وتركها لورود الآثار في هذا الباب كما ذكره في كتابه تهذيب السنن.(٣) وقد صنَّف ابن القيم كتابه زاد المعاد بعد تأليف هذا الكتاب بدليل أنه عزا بعض المسائل في زاد المعاد إلى تهذيب السنن. وهذا يشير إلى تأخر تصنيف زاد المعاد.

المبحث الثالث: عرض الروايات على العقل

إن العقل نعمة منَّ الله بها على الإنسان وبه يتميز عن الجماد والحيوان. وهو أداة التفكير التي يستطيع بها الإنسان أن يُمَيِّز بين الحسن والقبح في حياته. ومما لا شك فيه أن بعض الصحابة قد جعلوا العقل مقياسا لنقد متون بعض الأحاديث التي وصلت إليهم.(٤) ولكنني وجدتُ أن الصحابة رضوان الله عليهم ليسوا أول من استخدم هذا المقياس لنقد متون الأخبار، بل سبق إلى استخدامه النبي ﷺ. وعلى

---

(١) ابن القيم، حاشية ابن القيم على سنن أبي داود، ج٩، ص١٨٦.

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص١٩٥.

(٣) انظر: ابن القيم، مُحَمَّد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، تهذيب السنن، ط١، ١٤ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ج٨، ص٢٨٤. وانظر أيضا: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص١٤٨.

(٤) انظر: الدميني، مسفر عزم (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، مقاييس نقد متون السنة، ط١، ١م، الرياض: جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ص٩٥؛ والخير آبادي، مُحَمَّد أبو الليث (١٤١٠هـ)، مظاهر لتعامل السلف مع التراث في السنة المشرفة، مجلة الحكمة، السعودية، (١٩)، ص١١٠.

هذا، تكون تطبيقات الصحابة في نقد متون الروايات بناء على النظر العقلي مستمدة مما قام به النبي ﷺ. ومما يدل على أن النبي ﷺ استخدم العقل لنقد الأخبار ما يلي:

– عن نافع عن ابن عمر: "أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها، فاشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عصمة، فغيبوا مسكا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير، فقال رسول الله ﷺ لعم حيي: ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟، فقال:أذهبته النفقات والحروب، فقال: ﷺ العهد قريب المال أكثر من ذلك"، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام، فمَسَّه بعذاب...."[(١)] .

وفي قول النبي ﷺ: «العهد قريب المال أكثر من ذلك» لعم حيي دليل على أنه ﷺ عرض خبر عم حيي على العقل. وذلك لأن نفاد المال في وقت قصير مما يستبعده العقل السليم فلذلك لم يقبل النبي ﷺ خبر عم حيي ومسّه بعذاب. واستنبط ابن القيم من هذه الرواية دليلا على جواز الاعتماد على القرائن.[(٢)] ولا ريب أن البحث عن القرائن في حادثة معينة يعتمد على العقل.

ولم ينفرد أئمة المغازي بهذا المقياس لنقد روايات المغازي والسير، بل أكّد منهج البحث التاريخي المعاصر اليوم ضرورة استخدام المعيار العقلي لنقد الروايات التاريخية.[(٣)] ومما ينبغي التنبيه عليه أن عرض الروايات على العقل لا يعني رد كل الأحاديث التي تخالف الرأي. وهناك فرق بين العقل والرأي، إذ ليس كل ما يخالف رأينا يكون مخالفا للعقل. وهذا ما لم يدركه العقلانيون حتى انزلقوا إلى رد بعض الأحاديث التي تخالف آراءهم.

---

(١) أخرجه ابن حبان، كتاب المزارعة، ذكر خبر ثالث يصرح بأن الزجر عن المخابرة والمزارعة اللتين نهى عنهما إنما زجر عنه إذا كان على شرط مجهول، ج١١، ص٦٠٧، رقم الحديث: ٥١٩٩؛ والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب من رأى قسمة الأراضي المغنومة ومن لم يرها، ج٩، ص١٣٧، رقم الحديث: ١٨١٦٨. وقال ابن حجر: "رجاله ثقات". وصححه شعيب الأرناؤوط وحسنه الألباني. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٤٧٩؛ والألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، التعليقات الحسان على صحيح حبان، ط١، ١٢م، جدة: دار با وزير، ج٧، ص٤٢٩.

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص١٣٢.

(٣) حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط٨، ١م، بيروت: دار المعارف، ص١٣١.

رأي ابن القيم في عرض الروايات على العقل

يبدو واضحا من استقراء كتاب زاد المعاد لابن القيم أن عرض روايات المغازي والسير على العقل هو المقياس الثالث الذي اعتمد عليه ابن القيم لنقد المتون. وذلك لأنه يرى أن الأخبار التاريخية لا بد أن تتصف بالواقعية والمعقولية. والواقعية سمة بارزة من سمات الدين على وجه العموم وإن فقدان هذه الخاصية يؤدي إلى انحراف في التصور وفي التطبيق.(١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا المقياس خاص بما يمكن أن يدركه العقل. أما القضايا التي لا مجال للعقل فيها كصفات الله وأسمائه فلجأ ابن القيم إلى تسليمها إذا صح سندها. وذلك لعدم قدرة العقل على إدراكها من غير طريق الوحي.(٢)

ومن خلال استقرائي لكتاب زاد المعاد تبيّن لي أن ابن القيم تعامل مع عدد من روايات المغازي والسير معتمدا على هذا المقياس. ويكون نقده لهذه الروايات على النحو الآتي:

المطلب الأول: رد الروايات التي يحيل العقل وقوعها

كما أن العقل هبة من الله لعباده ليكون أداة للتفكير فكذلك الشريعة الإسلامية هبة من الله لهم لتكون مصدرا في تدبير شؤون حياتهم. وعلى هذا، فلا يُتصوَّر أن يكون ثمة التعارض بين الشريعة والعقل. قد تأتي الشريعة بما يحير العقول لا بما تحيله العقول. وما أحسن ما قاله ابن تيمية:

> "فإن الرسول ﷺ لا يجوز عليه أن يخالف شيئا من الحق ولا يخبر بما تحيله العقول وتنفيه لكن يخبر بما تعجز العقول عن معرفته، فيخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول..." (٣)

انطلاقا من هذا الموقف، قام ابن القيم بنقد روايات المغازي والسير التي يحيل العقل وقوعها. والمثال التالي يدل على تطبيق ابن القيم مقياس عرض روايات المغازي والسير على العقل(٤):

---

(١) سلطان العكايلة، نقد الحديث، ص٩٠.

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٢٠٧.

(٣) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م)، درء تعارض العقل والنقل، د.ط، ١٠م، (تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٥، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٤) انظر مثالا آخر في زاد المعاد، ج٢، ص٢٣٠.

حديث أمر النبي ﷺ أم سلمة بموافاته بمكة يوم النحر

عن أبي معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب، عن أم سلمة ﵂: "أن النبي ﷺ أمرها أن توافيه يوم النحر بمكة".

تخريج الحديث

مدار الحديث على أبي معاوية:

١. رواه أبو خيثمة[١] ويحيى بن يحيى[٢] وأبو كريب ومحمد بن حاتم[٣] وعبد الله بن هاشم الطوسي[٤] عن أبي معاوية، عن هشام، عن عروة، عن زينب، عن أم سلمة: "أن رسول الله ﷺ أمرها أن توافي صلاة الصبح يوم النحر بمكة". ووقع الشك في رواية عبد الله بن هاشم الطوسي وفيه: "أمرها رسول الله ﷺ أن توافي لصلاة الصبح بمكة أو لصلاة الضحى".

٢. وروى أحمد بن حنبل[٥] وإسحاق بن راهويه[٦] وعبد الله بن جعفر الرقي[٧] وأسد[٨] وسعيد ابن سليمان[٩] أبي معاوية، عن هشام، عن عروة، عن زينب، عن أم سلمة: "أن رسول الله ﷺ أمرها أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة". ولفظ آخر: "أن رسول الله ﷺ أمرها أن توافيه صلاة الصبح بمكة يوم النحر".

---

(١) أخرجه أبو يعلى، ج١٢، ص٤٣٢، رقم الحديث: ٧٠٠٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المييز، ص١٨٦؛ والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج، باب من أجاز رميها بعد نصف الليل، ج٥، ص١٣٣، رقم الحديث: ٩٣٥٧.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب التمييز، ص١٨٦.

(٤) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة، ج٧، ص٤٦٨، رقم الحديث: ٢٧٥٦.

(٥) أخرجه أحمد، ج٢، ص٢٢٠، رقم الحديث: ٣٩٩٦.

(٦) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده، ج٤، ص٦٢، رقم الحديث: ١٨٢٤.

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ج٢٣، ص٣٤٣، رقم الحديث: ٧٩٩.

(٨) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار، كتاب مناسك الحج، باب رمي جمرة العقبة ليلة النحر قبل طلوع الفجر، ج٢، ص٢١٩، رقم الحديث: ٣٩٨٩.

(٩) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار، كتاب المناسك، باب الاختيار في رمي جمرة العقبة، ج٧، ص٣١٢، رقم الحديث:١٠١٦٧.

٣. وروى مُحَمَّد بن عمرو بن يونس عن أبي معاوية، عن هشام، عن عروة، عن زينب، عن أم سلمة: "أن النبي ﷺ أمرها أن توافي الضحى معه بمكة يوم النحر".(١)

رأي ابن القيم في هذا الحديث

انتقد ابن القيم الرواية التي فيها الموافاة لصلاة الصبح مع النبي ﷺ بمكة وحكم عليها بالنكارة. وذلك لأن متنه يخالف العقل السليم حيث ثبت تاريخيا أن النبي ﷺ لم يكن موجودا في مكة يوم النحر وإنما كان في المزدلفة.(٢) فكون الشخص الواحد موجودا في مكانين مختلفين في آن واحد أمر مستحيل عقلا. فلذلك قال ابن القيم:

> "ومما يدل على إنكاره أن فيه، أن رسول الله ﷺ أمرها أن توافي صلاة الصبح يوم النحر بمكة، وفي رواية: "توافيه بمكة" وكان يومها، فأحب أن توافيه، وهذا من المحال قطعا".(٣)

وقد سبق الإمام أحمد ومسلم بالحكم على الحديث بالوهم لاستحالة أن يكون النبي ﷺ صلى في المزدلفة ومكة في وقت واحد.(٤) ولذلك حكم الطحاوي وابن التركماني على الحديث بالاضطراب.(٥) ومما يدل على أن أبا معاوية لم يضبط الرواية أنه تفرد بروايتها موصولا.(٦)

المطلب الثاني: رد الروايات التي يستبعد العقل وقوعها

لم يكتفِ ابن القيم بنقد الرواية المستحيلة عقلا فقط بل ذهب إلى نقد كثير من الروايات التي تتضمن أمورا يستبعد العقل وقوعها. ويستثنى من ذلك الروايات التي تضمنت المعجزات للنبي ﷺ

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ρ من ما كان منه في حجته من أمره أم سلمة زوجته أن توافي معه صلاة الصبح في يوم النحر بمكة، ج٩، ص١٣٧، رقم الحديث: ٣٥١٧.

(٢) انظر: مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ/٨٧٥م)، التمييز، ط٣، ١م، (تحقيق مُحَمَّد مصطفى الأعظمي)، دار الكوثر، السعودية، ١٤١٠هـ، ص١٨٧؛ ابن الملقن، البدر المنير، ج٦، ص٢٥٢.

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٢، ص٢٣٠.

(٤) انظر: أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ/٨٥٥م)، العلل ومعرفة الرجال، ط٢، ٣م، (تحقيق وصي الله بن مُحَمَّد عباس)، دار الخاني، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢، ص٣٦٨، رقم الحديث: ٢٦٣٧؛ ومسلم بن الحجاج، التمييز، ص١٨٦.

(٥) انظر: الطحاوي، شرح مشكل الآثار، ج٩، ص١٣٧؛ وابن التركماني، أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى، (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، الجوهر النقي، د.ط، ١٠م، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٥، ص١٣٢.

(٦) انظر: مسلم بن الحجاج، التمييز، ص١٨٦.

والكرامات لبعض الصحابة. وهذا يدل على ثقوب ذهنه ودقة ملاحظاته في نقد الروايات. وإني أرى أن بعض الباحثين المعاصرين لم يُفرِّقوا بين ما هو مستحيل عقلا وما هو مستغرب عقلا. وهذا غير دقيق لوجود الفرق بينهما.[١] ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

المثال الأول: أمر النبي ﷺ همدان بقتال ثقيف

روى أبو إسحاق الهمداني قال: "قَدِمَ وفد همدان على رسول الله ﷺ منهم مالك بن نمط أبو ثور، وهو ذو المشعار، ومالك بن أيفع، وضمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي، لقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، وعليهم مقطعات الحبرات[٢] والعمائم العدنية، على الرواحل المهرية[٣] والأرحبية[٤]، ومالك بن نمط يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ يقول:

إليك جاوزن سواد الريف في هبوات الصيف والخريف مخطمات بحبال الليف

وذكر له كلاما كثيرا فصيحا، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا، وأقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن نمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وأمره بقتال ثقيف، فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه...".[٥]

وانتقد ابن القيم هذه الرواية لكونها تتضمن ما تستغربه العقول. وذلك لأن ثقيفا بالطائف وهمدان باليمن. فبُعْد المسافة بين الطائف واليمن يجعل إغارة همدان على سرح ثقيف غريبا وبعيدا وإن لم يكن مستحيلا عقلا. فلذلك عَقّب ابن القيم على الرواية قائلا: "ولم تكن همدان أن تقاتل ثقيفا ولا تغير على سرحهم فإن همدان باليمن وثقيفا بالطائف".[٦]

أما الزرقاني فلم يوافق ابن القيم على تضعيف الرواية بحجة أن قتال همدان لثقيف ممكن عقلا لأنهم مروا على الطائف عند رجوعهم من المدينة إلى اليمن فقال:

"ويحتمل على بُعْد أنه -عليه السلام- أمره إذا مر عليهم في عوده لليمن بقتالهم

---

(١) انظر: جمال السيد، ابن القيم وجهوده، ج٢، ص٣٩.

(٢) الحبرة ضرب من برود اليمن منمَّر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص١٥٧.

(٣) هي إبل مهرية نجائب تسبق الخيل منسوبة لقبيلة مهرة بن حيدان. انظر: إبراهيم مصطفى والآخرون، المعجم الوسيط، الاسكندرية، د.ط، د.ت، ج٢، ص٨٩٠.

(٤) هي إبل منسوبة إلى أرحب بطن من همدان. انظر: النووي، تهذيب الأسماء، ج٣، ص١٢٠.

(٥) ذكره ابن الأثير معلقا في أسد الغابة، ج٥، ص٤٦، رقم الترجمة: ٤٦٥١.

(٦) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ٥٤٥.

ففعل، وأغار على سرحهم، ولم يمكنه القتال لتحصنهم بحصنهم، ولا يخالف ذلك التعبير بكان مع المضارع، فإنه يصدق ولو بمرة، كحديث كان يبعث ابن رواحة يخرص تمر خيبر، مع أنه إنما بعثه مرة واحدة، ولأن كلا من وفدي ثقيف وهمدان قدم مرجعه من تبوك ".[١]

قلت: إن فيما ذكره ابن القيم وجاهة لأمرين:

١. إن لفظ: "فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه" يشير إلى أن خروج سرح ثقيف إلى اليمن وقع متكررا وهو بعيد لبعد المسافة بين الطائف واليمن.

٢. روى ابن هشام هذه القصة من طريق أبي إسحاق السبيعي ولم يذكر أمر النبي ﷺ همدان بقتال ثقيف.[٢]

المثال الثاني: ذكر ابن إسحاق أن أبا عامر يشارك في غزوة تبوك

روى ابن إسحاق قصة النبي ﷺ وحذيفة بتبوك بدون إسناد وفيه قول النبي ﷺ لحذيفة: «إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم إن شاء الله غدا عند وجه الصبح»، فانطلق حتى إذا أصبحت فاجمعهم، فلما أصبح قال: «ادع عبد الله بن أبي وسعد بن أبي سرح وأبا خاطر الأعرابي وعامرا وأبا عامر والجلاس بن سويد بن الصامت»...[٣]

وقد تقدم أن ابن القيم انتقد هذه الرواية لكونها مخالفة للتاريخ حيث أثبتت أن عبد الله بن أبي شارك في غزوة تبوك. وهناك سبب آخر يحمل ابن القيم على نقد الرواية وهو كونها ذكرت أن أبا عامر شارك في غزوة تبوك. وهذا مما يستغربه العقل لأنه كان بالشام عند وقوع غزوة تبوك فمات بها طريدا

(١) الزرقاني، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين (ت١١٢٢هـ/١٧١٠م)، شرح المواهب اللدنية، ط١، ١٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٥، ص١٧٨.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبية، ج٢، ص٥٩٧-٥٩٩.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل، ج٥، ص٢٥٨.

ووحيدا.[١] فخبر مشاركته في غزوة تبوك غريب عقلا فقال ابن القيم: "فأين كان الفاسق وغزوة تبوك ذهابا وإيابا؟!".[٢]

المبحث الرابع: عرض الروايات على العرف السائد زمن الواقعة

والمقياس الأخير الذي اعتمده ابن القيم لنقد متون روايات المغازي والسير العرضُ على العرف السائد زمن الواقعة. ولم ينفرد ابن القيم بهذا المقياس لنقد متون الروايات، وقد أكدت الدراسات المعاصرة في التاريخ أن الروايات التاريخية لها ارتباط وثيق بالظروف المحيطة بالواقعة. وإن كان استعادة كل الظروف متعذرا فلا بد حينئذ من استعادة جزء منها.[٣] والمثال الآتي يُبَيِّن مدى أهمية عرض الروايات على العرف السائد:

ولادة النبي ﷺ مختونا

رُوِيَتْ قصة ولادة النبي ﷺ مختونا من عدة طرق:

١. طريق أبي هريرة: روى أبو الحسن الحمامي من طريق أحمد بن الحسنبن عساكر من طريق الحسن بن المظفر بن السبط وأبي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب وفاطمة بنت علي بن الحسين بن جدا، كلهم عن علي بن محمد الفارسي، عن محمد بن كثير الكوفي، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن أبي هريرة "أن النبي ﷺ ولد مختونا".[٤] وهذه الرواية ضعيفة بمحمد بن كثير الكوفي.[٥]

٢. طريق العباس بن عبد المطلب: روى البيهقي وابن سعد (ومن طريقه ابن عساكر) وأبو نعيم من طريق يونس بن عطاء، وابن عساكر أيضا من طريق موسى بن عطاء كلاهما (يونس وموسى) عن الحكم

---

(١) قصة فرار أبي عامر الراهب رواها ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلا وهي مشهورة عند أئمة المغازي. وذكر ابن هشام أن ابن إسحاق روى قصة فراره من المدينة من طريق أخرى عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم. والذي يظهر لي أن الصواب أن جعفر هذا ليس جعفر بن عبد الله وإنما محمد بن جعفر بن الزبير كما في رواية أبي نعيم الأصبهاني ورواها بإسناد حسن. وللقصة شاهد من رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه. انظر: أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م)، دلائل النبوة، ط٢، ٢م، (تحقيق محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس)، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص٨٠، رقم الحديث: ٤١؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص٥٨٥، وج٢، ص٦٧؛ المقريزي، إمتاع الأسماع، ج١٤، ص٣٦١.

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص٤٨٠. وانظر أمثلة أخرى في زاد المعاد، ج٣، ص٣٤٣، وج٣، ص٥٠٥.

(٣) انظر: حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، بيروت: دار المعارف، ط٨، د.ت ص١٢٦.

(٤) أخرجه أبو الحسن الحمامي، ص١٥٩، رقم الحديث: ٢٢١؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٣، ص٤١٢.

(٥) انظر: ابن عدي، الكامل في الضعفاء، ج٦، ص٢٥٣، رقم الترجمة: ١٧٣٠.

بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب، قال: "ولد رسول الله ﷺ مختونا مسرورا[١]"، قال: فأعجب جده عبد المطلب وحظي عنده وقال: "ليكونن لابني هذا شأن"، فكان له شأن.[٢] والحديث ضعيف جدا لأن يونس بن عطاء متروك. قال فيه ابن حبان: "يروي العجائب، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد".[٣] والغالب على ظني أن ذكر موسى بن عطاء في رواية ابن عساكر تصحيف. وذلك لأن ابن عساكر رواه من طريق ابن سعد وسماه يونس بن عطاء لا موسى بن عطاء، والله أعلم.

٣. طريق ابن عباس: روى ابن جميع من طريق عمر بن موسى وابن عدي (ومن طريقه ابن عساكر) من طريق عبد الله بن يحيى السرخسي كلاهما عن جعفر بن عبد الواحد، عن صفوان بن هبيرة ومُحَمَّد بن بكر البرساني، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: "ولد النبي ﷺ مسرورا مختونا".[٤] والحديث موضوع لأن جعفر بن عبد الواحد كذاب. قال فيه ابن حبان: "كان ممن يسرق الحديث ويقلب الاخبار، يروي المتن الصحيح الذي هو مشهور بطريق واحد يجيء به من طريق آخر...".[٥] وقال الدارقطني: "يضع".[٦] وقال فيه ابن عدي: "منكر الحديث عن الثقات ويسرق الحديث".[٧]

٤. طريق أنس بن مالك: روى الطبراني وابن الجوزي وابن عساكر والخطيب من طريق مُحَمَّد بن أحمد بن الفرج البغدادي، وابن عساكر من طريق مُحَمَّد بن أحمد الكرخي، كلاهما عن سفيان بن مُحَمَّد المصيصي، وابن عساكر من طريق مُحَمَّد بن عبد الله المرجاني، وابن عساكر من طريق مُحَمَّد ابن عبد الرحمن بن الجارود الرقي، وأبو نعيم والضياء المقدسي من طريق نوح بن مُحَمَّد الأيلي كلهم (المرجاني ومُحَمَّد الرقي ونوح) عن الحسن بن عرفة، وكلاهما (سفيان والحسن بن عرفة) عن هشيم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن

---

(١) مسرورا أي مقطوع السرة. انظر: ابن الأثير، النهاية، ج٣، ص٤٢٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل، ج١، ص١١٤؛ وابن سعد، ج١، ص٨٢؛ وأبو نعيم في الدلائل، ج١، ص١٥٤، رقم الحديث: ٩٢؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٣، ص٨٠؛ وج٣، ص٤١١.

(٣) ابن حبان، كتاب المجروحين، ج٢، ص٤٠١، رقم الترجمة: ١٢٥١.

(٤) أخرجه ابن جميع في معجم الشيوخ، ص٣٣٦، رقم الحديث: ٣١٤؛ وابن عدي في الكامل، ج٢، ص١٥٥؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٣، ص٤١١.

(٥) ابن حبان، كتاب المجروحين، ج١، ص٢٥١، رقم الترجمة: ١٨٨.

(٦) الدارقطني، الضعفاء والمتروكين، ص٧، رقم الترجمة: ١١٤.

(٧) ابن عدي، الكامل، ج٢، ص١٥٣، رقم الترجمة: ٣٤٧.

أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كرامتي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سوأتي».[١] وهذه الرواية ضعيفة بما يلي:

أ. سفيان المصيصي متروك. قال ابن حبان: "يقلب الأخبار ويأتي عن الثقات بما ليس من حديث الأثبات لا يجوز الاحتجاج به".[٢] وقال ابن عدي: "وفي أحاديثه موضوعات وسرقات يسرقها من قوم ثقات...".[٣]

ب. وضَعَّفَ ابن عساكر طريق الماجني ونوح الأيلي وابن الجارود فيقول: "وهذا إسناد فيه بعض من يجهل حاله وقد سرقه ابن الجارود وهو كذاب فرواه عن الحسن بن عرفة".[٤] وقال الذهبي في رواية نوح: "روى عن الحسن بن عرفة حديثاً شبه موضوع".[٥]

١- **طريق ابن عمر**: روى أبو نعيم الأصبهاني (ومن طريقه ابن عساكر) من طريق أبي الحسن أحمد بن مُحَمَّد بن خالد الخطيب الملحمي، عن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن سليمان، عن عبد الرحمن بن أيوب الحمصي، عن موسى بن أبي موسى المقدسي، عن خالد بن سلمة، عن نافع، عن ابن عمر قال :«ولد النبي ﷺ مسرورا مختونا».[٦] والحديث ضعيف لكون مُحَمَّد بن سليمان يُعَدّ ممن يدلّس ويروي المناكير. قال الدارقطني: "مخلط مدلس، يكتب عن بعض أصحابه، ثم يسقط بينه وبين شيخه ثلاثة، وهو كثير الخطأ".[٧] وقال فيه ابن عدي: "وللباغندي أشياء أنكرت عليه من الأحاديث وكان مدلسا يدلس على ألوان وأرجو أنه لا يتعمد الكذب".[٨] وتوثيق الخطيب

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، ج٦، ص١٨٨، رقم الحديث: ٦١٤٨؛ وأبو نعيم في الحلية، ج٣، ص٢٤؛ وابن الجوزي في العلل المتناهية، ج١، ص١٧١، رقم الحديث: ٢٦٤؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٣، ص٤١٢-٤١٤؛ والضياء المقدسي، ج٢، ص٣٦٢، رقم الحديث: ١٨٦٤؛ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ج، ج١، ص٣٢٩، رقم الترجمة: ٢٣٧.

(٢) ابن حبان، كتاب المجروحين، ج١، ص٣٥٨، رقم الترجمة: ٤٧١.

(٣) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج٣، ص٤٢٠، رقم الترجمة: ٨٤٥.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣، ص٤١٤.

(٥) الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٤، ص٢٧٩، رقم الترجمة: ٩١٤١.

(٦) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في أخبار أصبهان، ج٢، ص٢٧٧، قم الحديث: ٥٣٥؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٣، ص٤١٤.

(٧) الذهبي، ميزان الاعتدال، ج٤، ص٢٧، رقم الترجمة: ٨١٣٠.

(٨) ابن عدي، الكامل، ج٦، ص٣٠٠، رقم الترجمة: ١٧٨٨.

له لا ينفي قول من جَرَّحه والجرح المفسَّر مقدَّم على التعديل، والله أعلم.

وواضح بهذا أن كل طرق الحديث ضعيفة لا يثبت منها شيء. وحكم الحاكم على القصة بأنها ثابتة بطرق متواترة فيه نظر.(١) فلذلك عَقَّب الذهبي على قوله: "ما أعلم صحة ذلك، فكيف يكون متواترا؟".(٢)

أما ابن القيم فلم يكتفِ بنقد إسناد الحديث، بل لجأ إلى نقد متنه. فقال ابن القيم مبينا الإشكال في متن الحديث: "ورُوِيَ في ذلك حديث لا يصح، ذكره أبو الفرج بن الجوزي في "الموضوعات" وليس فيه حديث ثابت، وليس هذا من خواصه، فإن كثيرا من الناس يولد مختونا".(٣) وقد وقد استخدم ابن القيم العرف السائد في ذلك الزمان لنقد الحديث وهو كون الطفل وُلِدَ مختونا يُعَدّ عيبا في تلك الفترة وهذا لا يليق بالنبي ﷺ. فأورد ابن القيم دليلا لما ذهب إليه:

"إن قيصر ملك الروم الذي ورد عليه امرؤ القيس وُلِدَ كذلك ودخل عليه امرؤ القيس الحمام فرآه كذلك فقال يهجوه:

"إني حلفت يمينا غير كاذبة... لأنت أغلف إلا ما جنى القمر"

يعيره أنه لم يختتن وجعل ولادته كذلك نقصا".(٤)

الخاتمة:

وفي خاتمة هذه الدراسة أودّ أن أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث. ويمكن إجمالها على النحو التالي:

١- إن القرآن هو المقياس الأول لنقد متون روايات المغازي والسير عند ابن القيم. وعرض الروايات على القرآن عند ابن القيم لا يعني رد الروايات التي لا توجد في القرآن وإنما طلب مصداقها في القرآن بحيث لو لم تخالف القرآن قبلها ابن القيم. يكون رد ابن القيم الروايات التي تخالف القرآن في حالتين الأولى مخالفتها لنصوص القرآن والثانية مخالفتها لسياقه.

---

(١) انظر: الحاكم، المستدرك، ج٢، ص٦٥٧، رقم الحديث: ٤١٧٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج١، ص٨٠.

(٤) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر أيوب الزرعي (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، تحفة المودود، ط١، ١م، (تحقيق (تحقيق عبد القادر الأرناؤوط)، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٢٠٥.

٢- وتبين لي أن ابن القيم قام بعرض الروايات على التاريخ الثابت. وقد استخدم ثلاثة طرق خاصة لإثبات الحقائق التاريخية التي تصلح أن تكون مقياسا لنقد المتون. ورأى ابن القيم أن الحقائق التاريخية إن ثبتت فهي أقوى من أحاديث الآحاد فيجب تقديمها.

٣- أثبتت الدراسة أن ابن القيم اعتمد على العقل لنقد متون الروايات حيث قام برد بعض الروايات التي يحيلها العقل ويستبعدها.

٤- إن المقياس الأخير الذي استخدمه ابن القيم لنقد المتون هو العرف السائد زمن الواقعة. ومن خلال اطلاعي المتواضع لم أجد من المحدثين قبل ابن القيم من اعتمد على هذا المقياس لنقد روايات المغازي والسير. وبهذا كله أستطيع أن أقول إن ابن القيم هو من أول من استخدم هذا المقياس لنقد مرويات السير.